سمير أمين

مذكراتي: ماضٍ لحراسة المستقبل

ترجمة سعد طويل

(بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦). ٢٨٨ ص.

عبد المالك أشهبون(*)

باحث من المغرب.

يعتبر «أدب المذكرات» من ضمن الفنون الأدبية الجميلة والمشوّقة والمشهورة في الآداب الغربية. وقد عرف الأدب العربي الحديث تراكماً ضئيلاً في هذا المجال، كمياً وكيفياً. وقد تعود أسباب هذا الضعف إلى ضمور الحريات السياسية والعقائدية من جهة، وإلى نوعية بعض المذكّرات الرائجة في السوق، التي تضخم فيها صوت الأنا وتمجيد الذات، حتى غدت ـ وفق هذه المعطيات السالبة لعنصر جاذبيتها ـ مُمِلَّةً وبلا عِبَرٍ مستقاة منها من جهة أخرى، وهذا ما يجعل من بعض مذكّرات السَّاسَة وصنّاع القرار في الوطن العربي غير ذات جدوى في اهتمامات النقاد والقراء بصفة عامة، على عكس ما يحصل حينما يتعلق الأمر بمذكّرات أديب أو فيلسوف أو علامة.

فالذاكرة، في اعتقادنا الشخصي، هي جزء من الشخصية والهوية والانتماء، لذا من الواجب أن يكون القَيِّمُ عليها قديراً بتحمل هذه المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقه. وعلى هذا الأساس المكين، نؤكد أن فنّ كتابة المذكّرات ليس فعلاً متاحاً لكل من هبَّ ودبَّ، ولا أرضاً مشاعاً أمام كل من ساورته الفكرة إياها.

والمتأمل في أدب المذكّرات بصفة عامة، سيلفي أن هناك قاسمين مشتركين يجمعان بين أغلب كتّاب المذكّرات: **أولهما** أن مذكّراتهم هي نتاج بلوغ سنّ النضج، إن لم نقل الشيخوخة. و**ثانيهما** أن شهرتهم واسعة، وموقعهم وازن، وعيارهم ثقيل في المجالات التي تعتبر من صميم تخصّصاتهم، قبل أن يقدموا على نشر مذكّراتهم التي تعدُّ، في المحصّلة الأخيرة، تتويجاً لهذا المسار الإنتاجي الطويل والغني.

وهذا ما ينطبق بشكل جليّ على مذكّرات المناضل الشيوعي والخبير الاقتصادي سمير أمين... فبعد أن غمرت كتبه في مجال الاقتصاد حقلنا الثقافي لعقود

(*) البريد الإلكتروني: malek_ach@maktoob.com.

من الزمن، ها هي مذكّراته تضفي على رصيده العلمي والنضالي السابق أبعاداً أخرى، بما توفِّرُه تلك المذكّرات من معطيات جديدة، وما يثوي في أغوارها من أفكار متميّزة، ومن جرأة وحسم ظاهرين في طرح القضايا الوطنية والقومية والدولية ذات الطابع الإشكالي، من أجل استشراف الآفاق التي تجعل من هذه الأفكار عوامل لتحصين المستقبل من كل التحريفات والنقائص والعيوب والارتدادات التي يمكن أن تعتريه.

ولقد أكد سمير أمين هذا البعد الاستشرافي ـ بطريقة ضمنية ـ حينما ذيَّلَ كتابه هذا بعنوان فرعي: **ماض لحراسة المستقبل**، وهو ما يعني إيمان الكاتب ـ كمثقف ملتزم ـ بدوره الخلّاق في حراسة الأفكار المشرقة في المستقبل، لا في الحاضر فقط. فالكاتب لا يستهدف من خلال هذه المذكّرات توفير معلومات ومعطيات وحقائق فحسب، بل إنه يتجاوز هذه العملية التقريرية والتأريخية والتسجيلية إلى الارتقاء بقيمة مذكّراته إلى مستوى فعل التبصّر في الوعي الجماعي المشكّل لكل الشرائح المجتمعية التي تستحضرها المذكّرات. وفعل التبصّر هذا لا يمكن أن يتبلور إطلاقاً في غياب حسّ نقدي مرهف، ومنفتح على الآفاق الرحبة للمستقبل.

فإلى أي حدّ سيتمكّن سمير أمين من احتواء الماضي بكل إشراقاته وإخفاقاته، قصد الانفتاح على واقع حلم يرقى إلى مستوى طموحاته المتوثبة؟

إن أهم خاصية طبعت هذه المذكّرات تجسدت في الجرأة والجسارة الواضحتين في إبداء الرأي، والرأي المضاد في مختلف القضايا المطروحة، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم فكرية، الأمر الذي يجعلنا نعتبر هذه المذكّرات وثيقة تاريخية عن سيرة وطن وشعب في عزّ لحظات المخاض العسير، وذلك من منظور مفكّر وخبير ومناضل ملتزم بقضايا وطنه... كما أن القارئ الذي لم يعايش أحداث هذه المرحلة التي تمتد من أواسط القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادي والعشرين، سيجد أن مضمون هذه المذكّرات كفيل بتقديم إيضاحات ومعطيات وتواريخ عن مختلف المحطّات التي مر بها المجتمع المصري خاصة، والمجتمع العالمي عامة.

فمنذ الأسطر الأولى من الكتاب، يبدو سمير أمين منشغلاً بالتقاط تفاصيل الأجواء التي هيأته ذاتياً وموضوعياً لتبنّي الفكر الاشتراكي، سواء تعلّق الأمر بأثر تفاقم الأزمة الاجتماعية، أو بالتفاوت الطبقي، وأعطاب الاقتصاد الوطني، بالتوازي مع رصد الإخفاقات العربية العامة أمام إسرائيل، وتعثّر مشاريع الوحدة الإقليمية، ثم التفكّك العربي الشامل بعد النكسة، الذي أعقبته شتى صور الصراع الدامي بين الحكومات العربية، وحركات التطرف الديني، وما إلى ذلك من القضايا التي شغلت الرأي العام العربي على امتداد العقود السابقة.

أولاً: سيرة الفتى الأحمر في طفولته وشبابه

في سياق عودة العديد من الكتّاب إلى عالم الطفولة، يحقّ لنا أن نتساءل عن الأمر الذي يصبو إليه هؤلاء من خلال رجوعهم إلى الطفولة؟ هل هو ضرب من الحنين العارم إلى الماضي، في ظل واقع خانق أحياناً؟

أم أن الأمر أعمق من ذلك بكثير، بحيث يتجاوز هذا الحنين إلى فعل المساءلة، والنقد البناء للذات، وللماضي الذي تمتد جذوره إلى الحاضر والمستقبل، وبالتالي تغدو مساءلة سيرة طفولة الكاتب خاصة، وماضيه عامة، بمثابة ردّ فعل إيجابي على كل ما من شأنه أن يعوق تحرره من قيود الماضي كيفما كانت طبيعتها، وفي الآن ذاته صمام أمان ضد كل ما من شأنه أن يعيد إنتاج ما كان، بكل آلامه وسلبياته ونواقصه؟

مقابل هذا الرأي المحتفي بعوالم الطفولة كيفما كانت، يؤكد سمير أمين أنه ليس ممن يعتقدون أن ذكريات الطفولة دائماً سعيدة. بالتأكيد، إن ذكريات الأطفال المولودين في ظروف البؤس ليست سعيدة: «لكنني من أولئك المحظوظين الذين يحتفظون بذكريات سعيدة من طفولتهم. لهذا أتأثر كثيراً بالأماكن المرتبطة بطفولتي...» (ص ١٧). كما لا يخفي الكاتب في بداية مذكّراته أن للأسلاف أثراً كبيراً في الإنسان: «لا بفضل دمائهم، الأمر الذي لا أعتقد به بالمرة، وإنما بفضل ثقافتهم وما يحملونه من أيديولوجيا» (ص ٨).

وهنا يذكّرنا سمير أمين ببعض المعطيات المتعلقة بأسلافه، ومدى تأثيرهم في تكوينه النفسي والروحي والاجتماعي. فهو ينتسب لجهة الأب إلى الأرستقراطية القبطية في بور سعيد، حيث كان أبوه وفدياً ووطنياً وديمقراطياً في تفكيره، أما لجهة الأم فقد كانت تنتمي إلى عائلة فرنسية من الألزاس. كان الأبوان يشتغلان في مهنة الطب في بور سعيد، حيث كانا يجوبان القرى لتطبيب الناس ومساعدة الفقراء. فلهذين الأبوَيْن دور استثنائي في تربية سمير أمين، وغرس شعور التعاطف مع الفقراء، حينما كان طفلاً يرافق أبويه مثلاً في هذه المهمات والخرجات والزيارات.

كما يذكّرنا الكاتب بميول أبويه الاجتماعية والسياسية والفكرية، حيث كانت لهما نظرة اجتماعية إلى المشاكل. فقد كانا يقولان دائماً: «إن هذا البؤس المحيط بنا، ليس فقط غير طبيعي وغير مقبول، بل هو دليل على وجود عيب في المجتمع» (ص ١١).

ففي كنف هذه الميول الوجدانية المتعاطفة مع الفقراء والمحرومين، تشكّلت أفكار سمير أمين الذي ما نسي يوماً منظر ذلك الطفل الذي رآه يبحث في القمامة عن شيء يأكله، فسأل والده عن سبب قيامه بهذا العمل الوضيع، فأجابته أمه ـ وهو في سنّ السادسة من عمره ـ قائلة: «إن المجتمع سيئ، فيفرض ذلك على الفقراء»، وما كان على الطفل إلا أن يعقّب ـ ببراءة الأطفال ـ على كلام أمه قائلاً: «سأغيّر هذا المجتمع»، فقالت له: «هذا واجب». وعندما قصَّ هذه القصة على صديقه الفرنسي أندريه فرانك، بعد ذلك بأربعين عاماً، سأل هذا الأخير والدته قائلاً: «منذ متى صار سمير شيوعياً؟»، فأجابته: «كما ترى منذ السادسة» (ص ١٢).

من خلال ما سبق، يتأكد لنا أن سمير أمين لم يصل إلى عالم اليسار هكذا، أو كيفما اتفق، بل دخله بالتدرّج السلس، الذي يبتدئ بالتعاطف الطفولي الجامح مع قضايا المستضعفين في بلاده، وصولاً إلى التزامه النضالي الواعي، بعد ذلك، في الحزب الشيوعي المصري، وعضواً فاعلاً في الداخل والخارج. فبالإضافة إلى ردود فعله البسيطة تجاه مظاهر عدم المساواة الاجتماعية،

واتساع الهوة ما بين الطبقات في مصر، كانت هناك نظرة مترسّخة توجّه في العمق هذا التعاطف، وهذا الانتماء إلى الفكر اليساري؛ إنها فكرة الثورة التي آمن سمير أمين بحتمية حصولها في ظل الاستعمار وتفاقم الأوضاع، واحتداد الصراع الطبقي.

فالمسألة لا تتعلق بمظاهر الفقر والفقراء، ولا بردود الفعل المتشنّجة تجاه هذه الأوضاع المزرية، بقدر ما يتعلق الأمر بصراع حقيقي، آمن به الكاتب، بين أغلبية من الشعب المصري تتعرض لإقصاء ممنهج، وطبقة متسلطة تتفرّد وحدها بالاستفادة من خيرات البلد، وترهن مقدراته للعدو الخارجي.

وهذا ما سبق لسمير أمين أن أوضحه في كتابه الموسوم تحت عنوان: **سيرة ذاتية فكرية**، حين اعتبر أن التزامه بالشيوعية كان احتجاجاً على مهانة الظلم الاجتماعي، وأن البعد الوطني المعادي للإمبريالية لم يكمل هذا التوجّه إلا في ما بعد. وهو مسار مختلف عن مسار أغلب رفاقه المصريين في الليسيه، الذين اتخذوا الطريق العكسي، وفي نهاية المطاف، توصّل الجميع إلى الاقتناع بالتطابق بين السيطرة الإمبريالية والظلم الاجتماعي.

ثانياً: ما معنى أن تكون شيوعياً في وطننا العربي؟

ما من مذكّرات أو يوميات أو سير ذاتية إلا وتوفّر معلومات مهمة، وتبصراً في وعي جماعي أوسع، يشكّل عالم الكاتب الأشمل الذي يسترجعه في كليته، وهذا الأمر هو ما تحيل إليه مذكّرات سمير أمين، بطريقة مباشرة حيناً، وغير مباشرة أحياناً أخرى.

ففي استحضارنا لتاريخ التجارب الشيوعية في وطننا العربي لا مفرّ من التأكيد أن مسار هذه التجارب لم يكن مفروشاً بالورود، بقدر ما كان مساراً صعباً مليئاً بالعوائق والموانع والإكراهات، سواء في طبيعة تصوّر هذا النظام السياسي أو ذاك للفكر الشيوعي، أو في طبيعة التعاطي مع هذا الفكر الوافد الذي يتضمن مجموعة من التصوّرات التي يصعب استنباتها في مجتمع عربي إسلامي شديد الاعتداد بهويته الدينية، إلى حدّ التطرف في كثير من الأحيان.

كان سمير أمين، كجميع شباب مصر في تلك الحقبة، متحمساً للراديكالية التي بلغتها الحركة الشعبية المعادية للإمبريالية التي توجّت بمظاهرة ٢١ شباط/فبراير ١٩٤٦، وبنجاح الحركة الشيوعية، التي على رغم حداثتها، كسبت تأييد كل مصري لديه شعور بالوطنية وبالعدالة الاجتماعية. وهنا يزعم سمير أمين أن الشيوعيين كانوا القوة الوحيدة التي تجرأت على معارضة الملكية المكروهة من الفئات المسيّسة من الطبقات الشعبية، والبرجوازية الصغيرة الراديكالية (ص ٥٦).

من هذا المنطلق، يعتبر سمير أمين أن الخوف من الشيوعية كان يرعب الطبقات المستغِلَّة والسادة الإمبرياليين من خفقان الراية الحمراء فوق وادي النيل، كما كان يقال حينئذ. كان هذا صحيحاً، حسب تقديرات الكاتب: «فلو كانت هناك ديمقراطية حقيقية في تلك الفترة، لكان الشيوعيون قد كسبوا الجماهير الغفيرة، بل ربما الانتخابات. ولكن لا البرجوازية، ولا القوى الغربية، كانت مستعدة للمخاطرة بهذا الاحتمال...» (ص ٥٦).

انتقل سمير أمين بعدها إلى فرنسا، حيث كان طالباً في باريس خلال السنوات ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧، وهي السنوات الحاسمة في تكوينه الثقافي والسياسي والنضالي، حيث انتظم في ليسيه هنري الرابع في القسم الداخلي، في قسم الرياضة الأولية. وكان في تلك الفترة مناضلاً نشطاً، وعضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي. وبعد حصوله على دبلوم العلوم السياسية وليسانس المحاماة، بدأ التفكير في رسالته بشأن الاقتصاد. فالتحق بمعهد الاقتصاد السياسي في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣، وحصل على دبلومه في حزيران/يونيو ١٩٥٤، كما التحق في الوقت ذاته بمعهد الإحصاء في جامعة باريس لتنشيط معلوماته في الرياضيات، وحصل منها على شهادته العليا عام ١٩٥٥.

لم تنقطع زيارات سمير أمين المتكرّرة إلى مصر. فقد كان يتابع آخر التطورات التي حدثت في بلاده، ويتعلق الأمر بثورة الضباط الأحرار التي كان الجميع يبارك أهدافها النبيلة، كما كان يزور رفاقه في الحزب الشيوعي، ويتقابل معهم في لقاءات خاصة.

وبعد العودة إلى مصر في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧، وزواجه الرسمي بإزابيل (رفيقة دربه في الحياة الزوجية والنضالية)، تسلّم عمله الجديد في القاهرة. فقد كان هذا العام عام التغييرات الكبرى في مصر. ففي أعقاب هزيمة العدوان الثلاثي عليها، وُضعت رؤوس الأموال البريطانية والفرنسية والبلجيكية، التي كانت مسيطرة على القطاعات الصناعية الحديثة من الاقتصاد، تحت الحراسة من قبل النظام الناصري.

وتأسست لتدبير شؤون إدارة هذه الشركات مؤسسة شبه حكومية أطلق عليها «المؤسسة الاقتصادية». وكان من الطبيعي أن يكون رئيسها أحد الضباط المقرّبين من عبد الناصر، في حين عُيّن الرفيق إسماعيل (كان شيوعياً) مديراً في المؤسسة، ومسؤولاً عن التخطيط الاقتصادي لها. وبحث إسماعيل عن فريق يساعده في أداء مهامه، لذلك فكّر في سمير أمين منذ البداية. هكذا تابع سمير أمين الكثير من الملفّات المتعلقة بجميع القطاعات الكبرى في الاقتصاد المصري الحديث، واكتسب خبرات لا يستهان بها في هذا المجال؛ وطبقاً لمسؤولياته كان يتابع عن قرب مناقشات وقرارات مجالس إدارة الشركات.

وتعتبر نهاية الخمسينيات من القرن الماضي أشدّ صعوبة وإيلاماً بالنسبة إلى التنظيمات الشيوعية المصرية، حيث انتهى شهر العسل القصير بين الشيوعيين ونظام عبد الناصر، الذي لم يتقبل انتقادات الشيوعيين للنظرة البيروقراطية، المعادية للديمقراطية، في كثير من الأمور من أهمها: وحدة مصر مع سورية، والأوتوقراطية.

هكذا انقلب النظام الناصري على الشيوعيين، فشنَّ حملة واسعة من الاعتقالات على كوادرهم في أول كانون الثاني/يناير ١٩٥٩. وقد شملت الاعتقالات العديد من الرفاق، وكان من بينهم إسماعيل، في حين أفلت سمير أمين من هذه القائمة الأولى من الاعتقال.

في هذه الفترة العصيبة، توقّف سمير أمين عن العمل، وانخرط في سلك التدريس، كما بدأ التأليف حول واقع التجربة الناصرية في كتابه: **مصر الناصرية**، الذي

صدر له عام ١٩٦٣ تحت اسم حسن رياض، وهو الاسم السرّي لسمير أمين، وقد أصدر فيه حكماً قاسياً على الناصرية.

ويسجّل هنا أن السنوات الصعبة التي مرَّ بها الحزب الشيوعي جرّدته من قياداته الفاعلة من جهة، ودفعته إلى الخوض في صراعات واستقطابات داخلية عنيفة من جهة ثانية. فكان سمير أمين في هذا الخضمّ طرفاً غير محايد، وأحد النشطاء من داخل الحزب، إذ أدلى بدلوه في تلك النقاشات الصاخبة، باعتباره مدافعاً عن أطروحة تبدو غير مقبولة لدى فريق آخر من رفاقه. فكانت انتقاداته تصبّ في رفضه القوي للفكر الواحدي والاستبداد تحت أي شعار.

وككل الحركات السياسية التي تتعرض للصراعات الداخلية، والاختراقات الخارجية، بسبب طبيعة المرحلة الحرجة، وما صاحبها من تفاعلات معقّدة وساخنة، تترك هذه الصراعات والاختراقات عادة أكثر من سؤال. وهنا يعترف سمير أمين بأن الفكر الشيوعي والاشتراكي كان ضحية الصراع السياسي والعسكري بين قوتين عظميين، واستخدم الفكر وقوداً للصراع والتعبئة، ولو لم يكن الاتحاد السوفياتي شيوعياً لما كان الصراع بالطبع، ولتجنبت الشيوعية حملة فكرية هائلة من التشويه والتحريف والاستدراج.

خلال هذه الفترات العصيبة، عاش الكاتب مع زوجته مرارة المطاردة، وقسوة تضييق الحريات، وتوجساً من الاعتقال بين الفينة والأخرى، مما دفعهما إلى السفر إلى خارج مصر. رحل سمير أمين إلى باريس هرباً من مغبة أن تطوله حملة الاعتقالات، وفيها شعر بأن من واجبه أن يعاود الاتصال بالحزب الشيوعي الفرنسي، لتعريفه بالأوضاع في مصر بعد اشتداد حملة الاعتقالات هناك.

ثالثاً: لماذا كتابة المذكّرات؟

تكمن أهمية كتابة المذكّرات في الموقع الفاعل لصاحبها، ولدوره المركزي، وأثر شهادته المباشرة في مجريات الأمور في الحاضر والمستقبل. فمن الأجدر ممن أثّروا في حقبة معيّنة، أو كانوا قريبين من صانعي القرار، أن يكتبوا مذكّراتهم وانطباعاتهم كما لمسوها من خلال قربهم من تلك الأحداث، وهذه الكتابة تلقي ظلالاً، ليس على الأحداث، بل على المستوى الفكري والعقائدي والوجداني، مما يفسر كثيراً من الأمور التي لا تفسّرها الوثائق.

وهذا ما ينسحب على شخصية سمير أمين، الذي يرى ـ من منظوره الخاص ـ أن تاريخ الحركة الشيوعية لم يكتب بعد، وذلك ليس لمجرد أن أغلب هذه الشهادات متحيّزة بشكل صارخ في بعض الحالات إلى الأصول التي ينتمي إليها أصحابها، وهذا أمر مفهوم بالطبع، بل مقبول، ولكن لأن أصحابها لم يهتموا بإعادة قراءة هذا التاريخ بروح انتقادية، وبالتالي بروح النقد الذاتي.

كما يعتبر سمير أمين أن مرور الزمن يُمَكّن من القيام بتحليل موضوعي غير متحيّز للرؤى والاستراتيجيات الصريحة أو الضمنية، لطبيعة حضور الحركة الشيوعية في المجتمع المصري آنذاك، بل أيضاً لطبيعة تصوّر الرفاق للاتحاد السوفياتي زمنئذ. وفي هذا المضمار، يلفت الكاتب نظرنا إلى أنه لا يوجد ـ تقريباً ـ في هذه الشهادات حول هذه التجارب شيء يخصّ الاتحاد

السوفياتي، فقد كان دائماً بالنسبة إلى أغلبية الرفاق «ذلك الفردوس البعيد للاشتراكية، ولا يهتم أحد بمشاكله. وينطبق هذا بشكل أكبر على الصين، والماوية التي تكاد تكون مجهولة» (ص ١٠٣).

١ ـ سمير أمين وترسيخ مبدأ النقد الذاتي

في هذا السياق السجالي اللجوج انبرى سمير أمين مراجعاً العديد من القضايا في تاريخ الحركة الشيوعية العربية عامة، والمصرية خاصة. وهو يعرض تجربة العمل الشيوعي بقدر كبير من النقد الذاتي والانسجام مع النفس، بلا حسابات سياسية أو تنظيمية، كما يزعم، إذ تطرق إلى العديد من القضايا الشائكة التي واجهت الحركة الشيوعية، ومن أهمها الوضع الذاتي للحركة الشيوعية المصرية، التي لم تستوعب أبداً تحليل ماو تسي تونغ، كما ورد في كتابه: **الديمقراطية الجديدة**.

ومن منظوره الخاص، يرى سمير أمين أن النظام الناصري كان يعاني نقصاً في الديمقراطية، وأسلوبه الشعبوي لم يكن شكلاً بدائياً وناقصاً من الانفتاح الديمقراطي، بل كان في الواقع يرفض تماماً فكرة الديمقراطية، وأن وراء هذا الرفض كانت تقف المصالح الطبقية للبرجوازية. ولهذا السبب عينه، يتحمّل هذا النظام ببساطة تبعات ما تلاه من انفتاح مشبوه وفساد نخر كيان المجتمع، ومن صعود الإسلام السياسي الأصولي بشكل لافت للنظر.

من هنا نرى أن من فضيلة الكاتب وحسناته أنه شعر بخطورة الفكر الواحدي، سواء تعلق الأمر بالنظام الناصري، أو بالتبعية المطلقة للنظام السوفياتي.

٢ ـ سمير أمين الإداري والخبير الاقتصادي

استفاد سمير أمين من مجموعة من المهام التي تقلّدها، بدءاً من تعيينه أستاذاً في بوتييه وباريس وداكار في الفترة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠. واستفاد، كذلك، من رحلاته إلى العديد من الدول شرقاً وغرباً، بالإضافة إلى إقامته المؤقتة في كل من باريس، طالباً وأستاذاً، وباماكو في مالي التي كانت مسؤوليته فيها هي اقتراح مجموعة من البرامج المتعلقة بالاستثمارات المطلوبة، والناتج المتوقع، إلى جانب مأموريات في غينيا وغانا، بعد أن أعلنت الدولتان انتهاجهما للاشتراكية إلى جانب مالي.

لكن أبرز مسؤولية تقلّدها سمير أمين لاحقاً هي تعيينه مديراً لمعهد التنمية الاقتصادية والتخطيط في داكار، وهو المؤسسة الدولية التابعة للأمم المتحدة، حيث كان الدور الأساسي الذي كان عليه أن يلعبه المعهد في أفريقيا هو تحليل الخبرات واستراتيجيات التنمية والتخطيط.

فعلى الرغم من توسّع نشاط المعهد، وتعدّد أنشطته، ومراكمته للعديد من التجارب الناجحة في مجال التنمية، إلا أن إدارة الولايات المتحدة الأمريكية كانت غير راضية عن الأداء الإداري لمدير المعهد، ربما لتوجّهاته الفكرية التي لم تكن مستساغة لدى قادة البيت الأبيض في سياق مرحلة ما يسمى بـ «المكارثية» البغيضة في أمريكا.

وهنا يحمّل سمير أمين مسؤولية ما آلت إليه أحوال المعهد إلى الولايات المتحدة

الأمريكية، التي كانت العدو الأساسي لمخططات المعهد، كما تعادي جميع قوى التحرير في العالم الثالث. لذلك كان من الضروري لها أن تدمّر معهد التنمية الاقتصادية والتخطيط، مهما كان دور هذه المؤسسة ثانوياً في الساحة العالمية.

وبعد فترة معهد التنمية الاقتصادية، ساهم سمير أمين بشكل فعّال في تأسيس منتدى العالم الثالث، بعد أن نمت فكرة تبادل الآراء بين رجال الجامعات والمثقّفين من العالم الثالث المهتمين بالتنمية على مستوى القارات. وقد كان اختيار مقرّ المنتدى في داكار من اقتراح سمير أمين، وبمباركة من الرئيس السنغالي ليوبولد سيدار سنغور، الذي كانت تربطه به صداقة عميقة، إلى جانب علاقته برؤساء أفريقيين آخرين.

وعلى رغم تصوّرات أمين الخاصة لطبيعة تنمية دول العالم الثالث، فإنه يؤكد، في نهاية مذكّراته، ضرورة خلق جبهة مشتركة للشعوب يمكن من خلالها المطالبة الواسعة بالديمقراطية، مع المطالبة بإدارة اجتماعية لمصلحة الطبقات الشعبية. ودون خلق هذه الجبهة الشعبية الكونية لا يمكن مواجهة الرأسمالية العالمية، وبشكلٍ خاص، البربرية الأمريكية، التي يقول عنها سمير أمين: «إنها ليس لديها ما تقدمه للإنسانية سوى استخدام الإرهاب لتبرير عدوانها الإجرامي البربري على شعوب الجنوب».

تفضي بنا هذه المعطيات إلى أن أهمية هذه المذكّرات، كونها صادرة عن شخصية عاشت الكثير من الأحداث الوطنية والدولية، التي دفعته إلى الإدلاء برأيه في الجدل الدائر بين الشيوعيين المصريين (بشكل مباشر في الجدل بين «حدتو» والحزب الشيوعي المصري، وبشكل غير مباشر في تحرير مجلة **الشرق الأوسط** من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٣). كما أن لسمير أمين شخصية مرموقة في عالم الاقتصاد، بعد أن تبوأ إدارة مؤسسات اقتصادية دولية لها وزنها الملحوظ، مما أتاح له مقابلة الكثير من قادة أفريقيا الجديدة المستقلة، ومن المثقفين اللامعين من آسيا، وزعماء حركات التحرر، وزعماء الأحزاب الفرنسية والنقابيين، وأعضاء البرلمان الفرنسي أو مجلس الاتحاد الفرنسي.

والحق، إن مراجعة سمير أمين للتراث الماركسي كانت بمثابة ضربة حاسمة في كسر هذا الطوق المغلق، باتجاه إحداث تحوّلات فكرية وفلسفية بارزة، في ما كان يسمى بـ «التفكير الاشتراكي» الدوغمائي. لذلك كانت مراجعة سمير أمين «حدثاً» في مسار الرؤية التقدمية والواقعية للماركسية.

وبلا شك، فإنه كلما اقتربت المقاربة أو الشهادة من زمن الأحداث، ازدادت أهميتها في التدقيق والتمحيص. في الوقت نفسه، فإن البعد عن زمن الأحداث يتيح ـ لا محالة ـ فرصة التناول الموضوعي، وهذا ما تؤكده مذكّرات سمير أمين الذي يرى أنه من المناسب اليوم إعادة قراءة الفكر الشيوعي في وطننا العربي، بعد انتهاء حدّة الصراع، أو خفوت جذوته، مع سقوط المعسكر الاشتراكي الذي كان يغذّي هذا الصراع في سياق لعبة الاستقطابات الدولية، وبعد دخول المجتمعات العربية مرحلة من الهدوء والاسترخاء.

ففي هذا السياق التاريخي، يقدم سمير أمين تجاربه وشهاداته ومعايشاته، قصد تطوير العمل النضالي ذي الطابع

التطوعي من جهة، والعمل المهني الإداري والمؤسساتي من جهة ثانية، من منطلق تلازم المسارين في صيرورة حياة سمير أمين وترابطهما، حيث ظلّ قادراً على الجمع بين الشيوعية الأممية من جهة، والوطنية والانتماء العميق والرومانسي إلى الأرض، والأهل والناس البسطاء من جهة أخرى.

رابعاً: خفوت ثقافة الشأن الخاص مقابل التركيز على الشأن العام

من خلال ما سبق، نجد أن سمير أمين لا يهتم كثيراً بتقديم سيرة حياته على شاكلة كتابة أدبية، كما فعل عدد كبير من كبار الكتّاب والمفكّرين المعاصرين، مثل: طه حسين، والعقاد، ولويس عوض... إلخ، أو الذين أتوا من بعد، مثل: عبد الله العروي، ومحمد عابد الجابري، وإدوارد سعيد، وعلي القاسمي... إلخ، بقدر ما كان شغله الشاغل هو محاولته تقريبنا من بعض جوانب حياته الشخصية، من خلال إلقاء الضوء على خياراته السياسية والفكرية والأيديولوجية والعملية والمهنية فى المحل الأول، بالإضافة إلى بعض الإشارات والتعليقات والقصص الصغيرة التي ترتبط برحلاته. والظاهر أن مذكّرات سمير أمين كانت أكثر انشغالاً بالمجال الموضوعي المتعلق بالسياسة والاقتصاد والتجارب النضالية، أكثر من انشغالها بالجانب الذاتي الشخصي والحميم.

وعلى العموم، فعلى رغم أن هذه المذكّرات تلقي الكثير من الضوء على التطورات الفكرية والنفسية لسمير أمين، إلا أنها لم تكن مذكّرات اعترافية ـ حسب التقاليد الغربية ـ اللهم إلا وجود بعض الإشارات الخفيفة هنا وهناك، وبشكل غير مباشر أحياناً.

خامساً: طبيعة البناء الفني والأسلوبي في المذكّرات

إن المتفحّص مذكّرات سمير أمين يسجّل ظاهرة التعدّد الأسلوبي، التي جمعت ما بين أسلوب المذكّرات، وهو العمود الفقري في هذا النصّ، واليوميات التي كانت تبرز في مفاصل الكتاب بين الفينة والأخرى، والتأريخ للأحداث الكبرى الوطنية والقومية والدولية، والتحليل الموسّع للظواهر، والنظريات الاقتصادية التي كان الكاتب يقاربها من منظوره النضالي من جهة، ومن تصوّره المهني باعتباره خبيراً في هذا المجال من جهة أخرى.

أما الجنس الأدبي الذي كان حاضراً بقوة في هذا النصّ فهو الرحلة، وذلك بحكم الربوع التي اشتغل فيها سمير أمين، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. فقد وصف سمير أمين أماكن ومآثر ومعالم خاصة... وهكذا تحوّلت الرحلة هنا إلى تجربة ذاتية وموضوعية، بحيث تتدخل مشاهدات الكاتب في أوضاع الناس، وتحسّس الظلم الذي يعيشونه، وتأمل بساطة حالهم، ويأسهم ومآسيهم، على الخصوص في أثناء وجوده في أفريقيا.

وقد صاغ الكاتب كل ذلك بلغة تقريرية بسيطة تندرج في درجة الصفر في الإبداع، وهو ما يجعل من هذه المذكّرات ـ في غالب الأحوال ـ مجموعة من الوثائق الرديفة للمقالات الاقتصادية والسياسية أو الدراسات السوسيولوجية، على الرغم من

أنها لا تقوم بمقام الوثائق والحقائق التاريخية الرصينة، من حيث الدقة والصدق والتأريخ المطابق للواقع.

سادساً: وجهة نظر في الموضوع

لا بد من تسجيل أن أجمل المذكّرات الشخصية هي تلك التي يبرز فيها التضافر بين الجوانب المعروفة عن الشخصية، والجوانب الإنسانية الحياتية المعيشة البسيطة، وغير المعروفة، إضافة إلى العلاقات الحميمة بالآخرين العاديين في الأساس، هؤلاء الذين لا نعرفهم، ولم يحكِ التاريخ عنهم شيئاً. فهل حاول سمير أمين أن يحقق توازناً وتناسباً بين كشف وتعرية حياته الشخصية، وكذا تعرية وكشف الأسرار والخفايا غير المعروفة، في سياق مساره المهني الطويل: المتعدّد والمتنوّع والغني؟

من أجل تحقيق نوع من هذا التشخيص العميق لمسار حياته المتعددة والمختلفة، عمد الكاتب إلى التعامل الخاص مع مجموع العناصر والمكوّنات والمواد الخام، لكنه كان تعاملاً ليس على قدم المساواة، لأنه أعطى لما هو اقتصادي سياسي وتاريخي الأولوية في مذكّراته، من خلال استثماره مجموع مهامه النضالية والإدارية، من أجل إبراز كينونته، ومساراته الذاتية في هذا السياق.

نخلص في الأخير إلى أن أهم مكتسب تمكّننا منه مذكّرات سمير أمين هو القدرة على التحرر من الأطر الفكرية الصارمة التي يشتغل في خضمها؛ وهي أطر فكرية ذات نزوع علمي لا تسمح له بالدمج بين ما هو ذاتي، وما هو موضوعي، بين أسلوب السرد والتحليل، بين التاريخ الشخصي والتاريخ العام. فرهان سمير أمين الأساسي كان على هذا التشخيص الذي يحاول أن يستعيد نوعاً من الفهم الخاص للتاريخ المعاصر بمختلف تقلّباته وتغيّراته. فما يترسّخ لدينا من قراءة هذه المذكّرات بالضبط، هو أن هدفها الأساسي لم يكن كشف أسرار شخصية ومهنية لم تعلن من قبل فحسب، بل شرح أسباب اتخاذ مواقف معيّنة في أوقات معيّنة، والخلفيات التي واكبت اتخاذ هذه المواقف □